٤ ـ بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

الجحيم فى الروايتين

اذا تحدث الادباء فيما بينهم عن جحيم دانتى . فانما يريدون تلك الكوميدية التى لم تقصر نفسها على الجحيم تذكر طبقاته وحراسه ومعذبيه ، بل ضمت جوانحها ثلاث نواح : الجحيم l'inferno ، المطهر أو الاعراف Ilhpurgatorio ، والفردوس Il paradiso ودانتى فى كل ذلك يبلغ نهاية الأجادة . بيد أنه فى وصف الجحيم كان أكثر إسهابا وأشد قوة ، فطغى اسم الجحيم على الرواية كلها واستأثر بالاسم وحده بين كثير من المتأدبين .

ولكن المعرى لم يعن بجهنم كما عنى بالفردوس . ولم يسهب فى وصفها كما أسهب فى وصف الجنة . ولعله ما كان يريد أن يعرض للجحيم لولا رغبته أن يتم لابن القارح نعيمه . وأن يعظم شكره . فقد قال المعرى بعد أن استكمل لابن القارح كل لذائذه فى فراديس الجنان : ويبدو له أن يطلع على أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكره على النعم بدليل قول تعالى . « قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين » فيركب ابن القارح بعض دواب الجنة ، ويسير بها صوب الجحيم معرجا فى طريقه على (جنة العفاريت) يلتمس من أشعار أهلها متحدثا مع (الخيثعور أحد بنى الشيصبان ، ومع أبى هدرش) مارا على الحطيئة عند شجرة قيئة ، وليس عليه نور سكان أهل الجنة فيسائله عن سبب دخوله الجنة ، فيقول له الحطيئة : بالصدق فى قولى :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما ... بهجر فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها شوه الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

ثم يغذ فى سيره حتى يشرف على جهنم فيرى امرأة تطلع على من فيها . فيقول لها من أنت ؟ . فتقول : أنا الخنساء السلمية . أحببت أن أنظر الى صخر . فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ . والنار تضطرم فى رأسه ، فقال لى : صح زعمك فى ، يعنى قولى :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

ثم يتركها متغلغلا فى طبقات الجحيم .

طبقات الجحيم فى الروايتين

لم يعن المعرى بتقسيم الجحيم الى طبقات ، لكل طبقة من العصاة والمذنبين جزء مقسوم . ولم يسهب فى وصف أهوالها وآلامها إسهاب دانتى . بل كان همه لقاء الشعراء وحوارهم فيما نسب إليهم من شعر . وفى تصحيح الرواية ، وبيان الوجوه النحوية واللغوية والصرفية . فلم تكد تقع عينه على امرىء القيس حتى يسائله عن إعراب (يوم) وعن تخفيف الياء من (سى) وتشديدها فى قوله

ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل

ثم يقول : ليت شعرى ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ فيقال ما هو ذا من تحتك ان شئت أن تحاوره فحاوره ، فيحاوره فى (سخينا) من قوله ..

نفوسهم أم لم تصادف ، أما ان يكون الافراد احرارا فى اختيار الفضائل التى تتفق واهواءهم فانحلال وفوضى ، يقوضان أركان المجتمع فى يوم وليلة .

تستطيع ان تقول هذا فيما ذهب اليه السفسطائيون ، ولكنك لن تستطيع ان تنكر عليهم أنهم كانوا مرآة مجلوة انعكست عليها صورة الحياة فى عصرهم ، فقد تعددت العقائد الدينية فشك الناس فى صحة الأديان ، وقد تعددت الآراء الفلسفية فشك الناس فى ثبوت المعرفة . وقد برهنت الديمقراطية فى أثينا على أنها عاجزة لبعض العجز عن تصريف شئون الدولة فتزعزع الايمان فى أسلوب الحكم

شك فى الدين ، وشك فى المعرفة ، وشك فى نظام الحكومة ، لا يمكن أن يلد الا طائفة كهؤلاء السفسطائيين ، ينكرون الحقائق جملة ، ولا يؤمنون الا بالمنفعة الشخصية والحقيقة الذاتية .

ولكن أراد ربك ألا يطول الامد لهذا الانحلال الفكرى ، فسلط عليه ذهنا عاتيا جبارا ، مازال به نقدا واصلاحا ، حتى امحى وخلص من شره الانسان ، ومن يكون هذا غير سقراط ! ؟

زكى نجيب محمود

ستعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

أمن السخاء . أم من الماء السخين ؟ . الى كثير من حوار وجدل ، ذلك سيله ، سنفرده بالحديث حين الكلام عن الحوار فى الروايتين .

ولقد بذل داتى مجهودا عظيما فى تقسيم جهنم ، فقسمها إلى تسع طبقات اختص كل طبقة منها بطائفة من المعذبين ، ووصف ما هم فيه من عذاب وآلام وصفا مؤثرا بليغا . فى الطبقة الأولى رأى الملائكة الذين لم يطيعوا الله ولم يطيعوا ابليس Lucifero حينما تمرد على ربه . انتظارا للنتيجة حتى يتبعوا الغالب فى زعمهم ؛ ثم رأى خلقا كثيرا عريت أجسامهم ، واتابتها أفواج من الذباب والزنابير تدمى جلودهم ، وتنهل من دمائهم .

وفى الطبقة الثانية رأى المحبين الذين أسرفوا فألقوا أنفسهم فى حمأة الخطيئة . ومن بينهم باولو وعشيقته فرنشسكا التى قصصت خبرها فى العدد الماضى .

وفى الطبقة الثالثة رأى البخلاء والمسرفين يلعن بعضهم بعضا . ويقول الأولون للآخرين : لما ذا أسرفتم ؟ . فيقول الآخرون : للأولين لما ذا قترتم ؟ . ولن يغنى تخاصم أهل النار عنهم من العذاب من شىء .

وفى الطبقة الخامسة يرى الحمقى الذين كان يستفزهم الغضب وهم يضرب بعضهم بعضا . ثم يرى المتكبرين والمتغطرسين فى بركة سوداء مترعة بالأوحال والأقذار ، وهم يتقلبون فيها خاشعين . ينظرون من الذل من طرف خفى .

فأما الطبقة السادسة فهى مقابر متراصة . تزخر بالأنين وباللهب ، وأعدت لمن أنكروا الله ووجوده .

وفى الطبقة السابعة نظر نهرا من دم يغلى يغوص فيه السفاكون ، وقاطعوا الطريق .

وفى الطبقة الثامنة رأى رجال الدين المتجرين به . والذين كانوا يدّعون أنهم خلفاء المسيح الذى أحب الفقر وآثره على الغنى . بيناهم يتساقطون على الحطام تساقط الذباب على العسل ، والكلاب على الجيف . ورأى المنجمين والمخادعين والمرائين . وهم يلبسون أثوابا باطنها رصاص يشوى الوجوه ، وظاهرها ذهب لامع براق جزاء وفاقا على رياهم . ودهانهم .

أما الطبقة التاسعة فهى زمهرير تجمد ماؤه ، وضم فى أحشائه إبليس ، (ويهوذا الأسخريوطى) الذى تم على مكان السيد المسيح فدل اليهود عليه . ثم الذين خانوا أوطانهم مسهبا فى وصف هؤلاء الخائنين . مفتتا فى ذكر ما أعد لهم من جحيم ذى غصة ، ومن عذاب أليم .

حراس الجحيم

تحدث المعرى عن حراس الجحيم فى قلة وفى دعابة . ثم ذكر شيئا قليلا من أعمالهم ووظائفهم ، على حين أن داتى ذكر لكل طبقة من طبقات جهنم حارسا أو جملة اجراس ، وأسهب فى وصف أعمالهم وما يصبونه فوق رؤوس المعذبين من ويلات وآلام . وما أوجز المعرى فيما أحدثك عنه الا لأن المعرى رجل دعابة وظرف ، يريد أن يجتذب القارى . نحوه . وان يعلمه كثيرا من قواعد اللغة ومفرداتها دون أن يحس جفاف تلك الابحاث كما عهدناه يحاول ذلك فى (رسالة الملائكة)

وما أسهب داتى الا لأنه رجل موتور ممن شردوه ونفوه فهو يريد أن يرى وان يريه يصب من فوق رؤوسهم الحميم . ثم هو غرض (الكنيسة) يهوى أن ينفر الناس عن الخطيئة ما إستطاع لذلك سبيلا . فالمعرى يقص علينا عمل الزبانية بما حدثنا به عن بشار بن برد . وقد أعطاه الله عينين بعد الكمه لينظر ما نزل به من النكال . ولكن بشارا يأبى الا أن يغمضهما حتى تتوارى عنه الوان العذاب ، فتفتحها الزبانية بكلاليب من نار . . . كما حدثنا عن الزبانية مرة أخرى اذ يغضب ابليس من حوار بين الأخطل وبين ابن القارح فيصيح فيهم قائلا : ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ! فيقولون : كيف زعمت ذلك يا أبا مرة ؟ فيقول : ألا تسمعون هذا المتكلم فيما لا يعنيه ؟ فقد شغلكم وشغل غيركم عما هم فيه ، فلو ان فيكم خيرا لاحب نجيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به الى سقر . فيقولون : لم تضع شيئا يا أبا زوبعة ليس لنا على أهل الجنة سبيل . فيشمت ابن القارح فى ابليس : فيقول ابليس عليه اللعنة : ألم تنهوا عن الشمات يابنى آدم ؟ ولكنكم بحمد الله ما زجرتم عن شىء الا وركبتموه . .

وكم كان المعرى طريفا حقا إذ يحدثنا عن نداء ابن القارح لمهلهل أخى كليب حينما يقف فى جنبات السعير وينادى : اين عدى ابن ربيعة ؟ فتجيبه الخزنة قائلين : زد فى البيان : فيقول : الذى يستشهد النحويون بقوله